الاستاذ الشهيد مرتضى مطهّري

احياء الفكر في الاسلام

تعريب وتقديم: محمد علي آذرشب

هذه مجموعة من محاضرات ألقاها الأستاذ
الشهيد مرتضىٰ مطهّري سنة ١٣٩٢ هجرية
تعليقاً على كتاب « إحياء الفكر الديني في
الاسلام» للعلامة إقبال اللاهوري.

اسم الكتاب: إحياء الفكر في الاسلام
المؤلف: الاستاذ الشهيد مرتضى مطهّري
تعريب: محمد علي آذرشب
منشورات: مؤسسة البعثة
طهران ــ شارع سمية ــ ت ٨٢١١٥٩
الطبعة الاولى سنة ١٤٠٢ هجرية
حقوق الطبع محفوظة

الفهرس

مقدمة المترجم ٥

ماهو المقصود من إحياء الفكر الديني؟ ١٣

إقبال و فكرة الإحياء ١٥

المفهوم القرآني للإحياء ٢٢

مظاهر المجتمع الحيّ ٢٤

أسباب تخلّف المسلمين ٣٠

مفهوم العمل ٣٠

نماذج من انحراف مفهوم العمل ٣١

جذور انحراف مفهوم العمل ٣٤

مدرسة أهل البيت تقف بوجه الانحراف ٣٥

مفهوم التوكل ٣٩

الزهد ٤٠

لذات الدنيا ٤٢

أهداف الزهد في الاسلام ٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

«مقدمة المترجم»

لان كانت قيمة مقالات «رسالتنا»[١] تتمثل بالدرجة الاولى في تعبيرها عن مرحلة معينة من مراحل الكفاح الاسلامي في العراق، فإنّ هذا الكتيّب يمثل أيضاً مرحلة من مراحل العمل الاسلامي في إيران.

الشهيد مطهّري، مثل أغلب المصلحين في عالمنا الاسلامي المعاصر، تحرك أوّل ماتحرّك على طريق تغيير المفاهيم الخاطئة السائدة. واجه أفكاراً منحرفة ومفاهيم مغلوطة تتجه نحو تثبيط العزائم وتجميد الهمم وصدّ التحرك الاجتماعي. و وجد أن مسؤوليته الاسلامية تفرض عليه أولاً تغيير هذه الافكار والمفاهيم المنحرفة، وتقديم المفاهيم الاسلامية الصحيحة للمجتمع.

وهنا لابد من التأكيد على أن الشهيد مطهرّي كان يرىٰ في عملية تغيير المفاهيم الخاطئة ونشر الافكار والمفاهيم الاسلامية الصحيحة مقدمةً لتغيير المجتمع، واقامة حكم الله في الارض. و لا أدلّ على ذلك من انضوائه تحت لواء الامام الخميني منذ انتفاضته الاولى بوجه طاغوت إيران عام ١٦٩٢ مما أدّى الى اعتقاله. كما أن دوره الكبير في انتصار الثورة الاسلامية، وما بعد الانتصار في مجلس قيادة الثورة يدلّ على الخط الفكري الثوري للشهيد مطهّري.

---

١ ــ سلسلة مقالات كتبها الشهيد محمد باقر الصدر في مجلة «الاضواء» النجفية في بداية الصحوة الاسلامية في العراق بعد انقلاب تموز عام ١٩٥٨.

يكاد كلّ المخلصين في عالمنا الاسلامي يجمعون اليوم على أن الدعوة على صعيد الفكر و المفاهيم لاتستطيع أن تحقق وحدها اهداف الاسلام، وليس بمقدورها أن تعيد الى الامة الاسلامية وجودها المنهوب وكرامتها المنتهكة مالم يرافقها إعداد للنضال الدامي ضد القوى الشيطانية المسيطرة على مقدرات المسلمين.

وهذه مسألة ينبغي التأكيد عليها، خاصة في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ أمتنا.

لقد بدأت وسائل الاعلام الكافرة والعميلة بحملة دعاوية واسعة باسم التنديد بالعنف في بلاد المسلمين. وجنّد المجندون لهذه الحملة الصحف والمجلات والاذاعات و وعاظ السلاطين والكتاب المأجورين. و من الطبيعي أن هذه الحملة لاتستهدف التنديد بألوان العنف الذى يمارسه الطواغيت وعملاؤهم بحق الشعوب المظلومة. لاتستهدف التنديد بالمجازر الوحشية والاعتقالات الواسعة وعمليات التعذيب البشعة القذرة التي تتعرض لها الفئات المسلمة المؤمنة في عالمنا الاسلامي بل في العالم أجمع. إنما تستهدف إدانة كل صيحة اعتراض يرفعها مسلم أو مجموعة مسلمة، والتنديد بكل موقف مشرّف يتخذه إنسان مسلم أو مجموعة مسلمة أمام الطواغيت العتاة المتجبرين.

أصبحت كل صحوة إسلامية توسم بالعنف، وأصبح كل تحرك للانقضاض على مذلّي الشعوب و المستهينين بالكرامات والمقدّمين شعوبهم قرابين على مذبح شياطين الارض، عنفاً في رأي القائمين بأمر هذه الحملة المسعورة الظالمة. أما إبادة المسلمين واعدام الشخصيات الاسلامية والهجوم العسكري المسلح على الكيان الاسلامي الوليد، فهو ليس بعنف، بل لمواجهة العنف!!!

أعود فاكرر أنّ الشهيد مطهّري نهض بكفاحه الفكري باعتباره خطوة

على طريق التغيير الاجتماعي الشامل المتمثل في إقامة المجتمع الاسلامي وتحقيق حاكمية الله على الارض. هذا هو اتجاه كل المخلصين في عالمنا الاسلامي ــ كما قلت ــ بما فيهم أولئك الذين اشتهروا أكثر ما اشتهروا بالدعوة الفكرية والتربوية.

الشهيد الصدر في رسالتنا يقول:

«... نستطيع أن نقول أنّ الفكرة الاسلامية في الرسالة، فكرة انقلابية ثورية لانها تضع للانسان قواعده الرئيسية التي تتبلور طبقاً لها شخصيته الروحية والفكرية من نظرة عامة نحو الكون والحياة ومقياس عملي أعلى في الحياة، وطريقة عقلية عامة في التفكير، ثم تقيم المجتمع على أساس تلك الاسس التي كونت منها شخصية الانسان الكاملة، فالمسألة في نظر الاسلام هي صنع إنسانية بخصائصها الروحية والفكرية التي تتيح لها القيام بأعبائها و رسالتها في العالم، وليست ترميماً واصلاحاً لجانب اجتماعي فقط.

هذا من ناحية الفكرة التي يتبناها الاسلام، وأما من ناحية الطريقة التي يجب أن تنفذ الفكرة وفقاً لها، فلم يضع لها خطوطها المحدودة وتفاصيلها الثابتة في كل الاحوال والظروف كما صنعت الماركسية، حيث إنّ الانقلاب الثوري هو الطريق الوحيد لتطبيق مفاهيمها.

فالاسلام من ناحية الطريقة لايجد من الضرورى أن يكون انقلاباً ثورياً كما كان في فكرته، و إنما يفسح المجال للانقلابية الثورية في حدود الشروط الصارمة التى تفرضها عليه مُثُله وقيمه العليا ويسمح باستعمال مختلف الأساليب والألوان التي تتفق مع تلك المثل والقيم.

وهكذا نعرف أنّ الاسلام انقلابي ثوري في فكرته، ومرن في طريقته التى يجب أن تحدد على ضوء الملابسات والظروف ومقتضيات الاحكام الشرعية العامة في باب الجهاد و باب الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و باب التبليغ

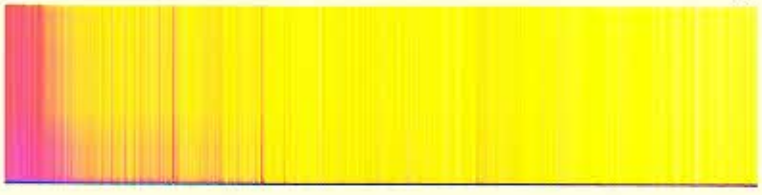

والتعليم و باب التقية وغيرها من الابواب»[١]

صفة الانـقلابية الثوريـة لاتـنفك عن الاسلام و عن حـــركة الانسان المسلم والمجموعة المسلمة، غير أن الظروف والملابسات هي التي تـــفرض طريقة ممارسة هذه الصفة.

والشهيد الصدر في مرحلة متأخرة مـن حياتـــه يـــذهب الى أن نـــزعة «الانتقام من الجبارين» نزعة تكاملية لايمكن للانسان السائـر على طـريق الله أن يتخلّىٰ عنها فيقول:

«النموّ الحقيقي في مفهوم الاسلام (هو) أن يـحقق الانسان ــ الخليفـة على الارض ذاته ــ تلك القيم التي يؤمن بـتوحّدها جميعـاً في الله عز و جـل الذي استخلفه واستربعاه أمر الكون. فصفات الله تعالى وأخـلاقه مـن العـدل والعلم والقدرة والرحمة بالمستضعفين والانتقام من الجبارين والجـود الذي لاحدّ له هي مؤثرات للسلوك في مـجتمع الخـلافة وأهداف للانسان الخليفـة، فقد جاء في الحديث: تشبّهوا بأخلاق الله»[٢]

الاستاذ الشهيد حسن البنا عُرف بـدعوته الفكريـة والاخـــلاقية والتربوية، لكنه مثل سائر العاملين الملتزمين المخلصين كـان يـؤكد على دور القوّة في تحقيق رضا الله تعالى، وعلى ضرورة إعداد القـوة اللازمـة للمعـركة العنيفة ضدّ الباطل. وجاء هذا التركيز واضحـاً في خـطاب ألقـاه في المؤتـــمر الخامس لحركة الاخوان المسلمين عام ١٣٥٧ هجرية حيث قال: «وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ــ معشر الاخوان المسلمين ــ ثلاثمائة كتيبة قد جهـزت كل نفسها روحياً بالايمان والعقيدة. وفكرياً بالعلم والثقافة وجسمياً بالتدريب والرياضة.. في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجاج البحار، وأقتحم بكم

---

١ ــ رسالتنا، مقال: «رسالتنا فكرية انقلابية».

٢ ــ خلافة الانسان وشهادة الانبياء، فصل مسار الخلافة على الارض

عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فاني فاعل إن شاءالله..»[١]

وهذا **المفكر المسلم أبو الاعلىٰ المودودي** (أمير الجماعة الاسلامية بباكستان) يشير الى عقم الاكتفاء بأسلوب الوعظ والارشاد فيقول:

«يُصبح من العبث الدعوة الى الاسلام على طريقة التبشير المسيحي. ولو طبعت ملايين النشرات تدعو الى التمسك بالاسلام وتصيح بالناس أن (اتقوا الله) صباح مساء، لما كانت ذات فائدة تذكر. إذ ماهي الفائدة العملية التى ستنجم عن تأكيد أن الاسلام صالح لكل زمان و مكان و أن فوائده ومزاياه ليس لها مثيل عن طريق القلم والخطابة؟ إن حاجة العصر تتطلب إبراز هذه المزايا بصورة عملية في عالم الواقع.. إن مشاكل العالم المادية لن تحل لمجرد القول بأن الاسلام يملك حلها.. إن قيمة الاسلام الذاتية لابد و أن تبرز الى الوجود في هيئة نظام عملي مهيمن يلمس الناس آثاره ويجنون ثماره.. إننا نعيش في عالم يقوم على الصراع والكفاح، والخطابة والوعظ لن تفلح في تغيير مجراه. ولكن الكفاح الثائر وحده هو الذى يستطيع ذلك»[٢]

والمودودي لايريد أن يستهين طبعاً بدور الكلمة في الدعوة الى الله، وهو الكاتب والواعظ والخطيب، بل يردّ على الذين يقنعون أنفسهم بالاكتفاء بالكلمة، إنه يردّ بعبارة أخرى على تجار الكلمة وعلى المهزومين نفسياً أمام بطش الجبارين، ويؤكد أن الكلمة الجادّة المخلصة لاتفترق عن الحركة الجادّة، وعن الكفاح الثائر، والعمل الجادّ هو الدليل الوحيد علىٰ صدق جدّية الكلمة.

هذه مسألة أردت التأكيد عليها في هذه المقدمة، الى جانب مسألة أخرى ترتبط بكتاب العلامة إقبال اللاهورى «إحياء الفكر الديني في الاسلام» الذي كان مناسبة لاحاديث الاستاذ الشهيد مطهري حول مسألة «الاحياء»

١ ــ مشكلات الدعوة والداعية، فتحي يكن، ص ٢٣٠

٢ ــ رسالة داء المسلمين ودواؤهم ص ١٥

الحديث عن كتاب إقبال يثير مسألتين: الاولى مسألة الاحياء، والاخرى هفوات اقبال في فهم هذه المسألة.

أما بشأن المسألة الاولىٰ، فالاحياء كلمة عربية استعملت في اللغة الفارسية أيضا لتعني إثارة صحوة جديدة وتحرك جديد في الدين. وفي اللغة العربية استعملت مكانها غالباً كلمة (التجديد).

مسألة التجديد راجت في عصرنا الاخير واتسع نطاقها، واضحىٰ المتميعون بثقافة الغزاة الاوربيين يطلقون على أنفسهم كلمة مجددين، كما إن بعض التافهين راحوا يدبّجون الفتاوى الغريبة ويسلكون السبل الشاذة ليكونوا في عداد المجددين.

وخير من رأيت قد درس مسألة التجديد الاستاذ أبو الاعلى المودودي في كتاب «موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه». والكتاب على إيجازه يضم دراسة واعية أصيلة عن التجديد والمجددين.

يضع المودودي للمجدد شروطاً هي:

١ ــ تشخيص أمراض البيئة التي يعيش فيها المجدّد تشخيصاً صحيحاً...

٢ ــ تدبير الاصلاح، وبعبارة أخرى تعيين مواضع الفساد التي يجب أن تعالج بالضرب والشذب في الوقت الحاضر...

٣ ــ اختبار المجدد نفسه وتعيينه حدود عمله، وتقديره قوته ومقدرته...

٤ ــ السعي لاحداث الانقلاب الفكري والنظري...

٥ ــ محاولة الاصلاح العملي..

٦ ــ الاجتهاد في الدين..

٧ ــ الكفاح والدفاع..

٨ ــ إحياء النظام الاسلامي..

٩ ــ السعي لاحداث الانقلاب العالمي...[١]

١ ــ تجديد الدين واحيائه، ص ٣٣، ٣٤

المجدد الجزئي والكامل

يوضح المودودى أن المجدد اليوم لايستطيع أن ينهض بكل المهام المذكورة بل «إن الشُّعَب الثلاث المتقدمة منها، لا محيص منها لأحد يقوم بمهمة التجديد، ولكن الشّعب الست الباقية لايشترط للمجدد أن يستوفي جميعها، وانما يصح أن نعدّ مجدداً كل من يأتي بعمل جليل في إحدى تلك الشعب أو الاثنتين أو الثلاث أو الاربع، الا أن مثل هذا المجدد لايقال له مجدداً كاملاً بل يعرف بمجدد جزئي..»[١]

أما المجدد الكامل الذي يستوفي جميع الشروط المذكورة فيعتقد المودودي أن موضعه غير مشغول بعد. ثم يقول:

«لكن العقل والطبيعة وسير الأحوال، كل ذلك يقتضي ويتطلب أن يظهر مثل هذا الزعيم فيجدد الدين في شعبه وفي جميع نواحيه، سواء كان ظهوره في هذا الزمان أو بعد ألف دورة من دورات الحدثان. **ذلك الزعيم الذي يعرف بالامام المهدى**، والذي جاء الحديث النبوى بنبوآت، واضحة فيه»[٢]

هذا مايرتبط بالاحياء أو التجديد، أما بشأن هفوات إقبال في فهم هذه المسألة، فقد أوضحها الاستاذ مطهري في كتاب «نهضتهاى إسلامى در صد ساله أخير» = الحركات الاسلامية في القرن الاخير، وهذه ترجمة توضيحه:

«النقص الاساس في عمل إقبال يتمثل في جانبين:

---

١ ــ نفس المصدر، ص ٣٤، ٣٥، ويلاحظ أن الشروط التى يضعها المودودي للمجدد الجزئي، تقترب كثيراً من الشروط التى يضعها الامام الخميني للولي الفقيه، ومن الصفات التى يحددها الشهيد الصدر للمرجع الشاهد، راجع الحكومة الاسلامية للامام الخميني، وخلافة الانسان وشهادة الانبياء للشهيد الصدر.

٢ ــ هذا الفهم الواعي لمستقبل الاسلام، ولظهور المصلح العالمي الاكبر المتمثل في المهدى من آل محمد انعكس فى دستور الجمهورية الاسلامية، بعد أن حدد الدستور صفات ولي الامر المؤهل لتولّى زمام أمور المسلمين، راجع المادة الخامسة من الدستور.

الاول: عدم فهمه العميق للثقافة الاسلامية، فمع إنه في المفهوم الغربي فيلسوف حقاً، فهو لم يفهم شيئاً صحيحاً عن الفلسفة الاسلامية....

والنقص الآخر في عمل إقبال، هو إنه ــ خلافا للسيد جمال الدين ــ لم يسافر الى البلدان الاسلامية، ولم يشاهد عن كثب الاوضاع والتيارات والحركات، من هنا فقد ارتكب أخطاء فظيعة في تقييمه لبعض شخصيات العالم الاسلامي وبعض الحركات الاستعمارية في العالم الاسلامي.

إقبال في كتابه «إحياء الفكر الديني في الاسلام» اعتقد أن حركة الوهابية في الحجاز والحركة البهائية في إيران، و نهضة أتاتورک في تركيا، إصلاحية إسلامية، وفي أشعاره أشاد ببعض الدكتاتوريات العسكرية في البلدان الاسلامية. وهذه أخطاء لاتغتفر لاقبال المسلم المصلح المخلص».[1]

وبعد فهذة المحاضرات التي يراها القاريء بين يديه كانت مسجلة على الشريط حتى شهادة الاستاذ مطهرى، و واضح أنّ مثل هذه التسجيلات بحاجة الى تهذيب وتشذيب و تنظيم قبل طبعها، وهذا ماحاولت أن أفعله في الترجمة العربية.[2] و ان وفقت في ذلک، فما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب.

محمد علي

يوم القدس (آخر جمعة من رمضان)

١٤٠٢ هجرية

---

١ ــ ص ٥٥، ٥٦

٢ ــ بعد أن انتهيت من ترجمة هذه المحاضرات، لاحظت أن كلية الالهيات والمعارف الاسلامية قد طبعتها في كتيب حسب تبويب يختلف عن تبويب هذه الترجمة.

بسم الله الرحمن الرحيم
«يا أيُّها الذين آمنوا استَجيبُوا للّهِ
وللرسولِ إذا دَعاكم لِما يُحييكم»
الأنفال ــ ٢٤

ماهو المقصود من إحياء الفكر الديني؟

أوّل مسألة ينبغي أن نؤكد عليها في هذا المجال هي إن أحكام الاسلام حية لايعتريها موت أو نسخ. والله سبحانه تعّهد صيانة هذا الدين إذْ قال: **إنّا نحن نَزّلنا الذكر وإنّا لَهُ لَحافِظُون»**[١].

خاصية الخلود هذه هي التي تميّز الدين الخاتم عن النظريات العلمية التي قد تموت الى الأبد مثل نظرية بطليموس في الهيئة ونظرية العناصر الأربعة للطبيعة.

مما تقدم نفهم أن المقصود من إحياء الفكر الديني ليس هو إحياء الدين نفسه، بل إحياء التفكير بشأن الدين، وبعبارة أخرى غسل الأدمغة مما تراكم فيها من انحرافات وتشويهات بشأن الدين. وما ورد في الروايات عن الدور الذي يمارسه المهدي الموعود ــ عليه السلام ــ بشأن تجديد الدين، فإنما يعني هذا اللون من التجديد، تجديد يتجه الى إحياء السنة وإماتة البدعة.

فكرة الاحياء نجدها فيما ورد عن آل بيت رسول الله ــ ص ــ حيث قالوا: «**أحيوا أمرنا**».

كما وردت في عبارات أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ كلمة الاحياء إذقال: «**أحيوا السنة وأماتوا البدعة**»[٢].

١ ــ الحجر، ٩
٢ ــ نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٩٨

وقال متحدثاً عن المهدي الموعود: «**فيريكم كيف عدلُ السيرة ويحيي ميتَ الكتاب والسنّة**»[١].

ويقول أيضاً: «**إنه ليس على الامام إلاّ.... وإحياء السنّة**»[٢].

جدير بالذكر أن مسألة الإحياء هذه راجت بين علماء الدين، وسادت فكرة ضرورة التجديد بين مدة وأخرى. الإحساس بهذه الضرورة شكل أرضيّة انتشار حديث مختلق بين علماء السنة والشيعة يدور حول ظهور مجدّد على رأس كل مائة سنة. وراح الفريقان يَجمعون وَيطرحون ليشخّصوا هؤلاء المجدّدين في التاريخ.

فكرة الإحياء في أحاديث أهل البيت وعند علماء المسلمين تعني طبعاً إزالة ماعلق به من عادات وتقاليد اتخذت مع مرّ الزمن صفة دينية وليست هي من الدين بشيء.. كما إنها تعني تقديم الدين بالشكل الذي يواكب المتطلبات المتغيرة للزمان.

قد يعترض معترض على فكرة الإحياء مستنداً الى الآية الكريمة: «**يا أيها الذين آمنواستجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم**».

ويقول: إن الآية تصرّح أن الدين هو عامل إحياء الإنسان فكيف لإنسان أن يحيي الدين؟ هذا الإعتراض يفترض وجودَ تعارض بين فكرة إحياء الإنسان للدين، وبين إحياء الدين للإنسان. لكن هذا التعارض غير موجود في الواقع. فالتقوىٰ مثلاً تحصّن الإنسان والإنسان بتحصّنه يتزود بالتقوى، ولاتعارض بين ذلك. والغذاء يصون الإنسان، والإنسان ينبغي أن يصون الغذاء من التلوث بالآفات. والدين بدوره يصاب بالآفات، كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «**آفة الدين ثلاثة: إمام جائر، و عالم فاجر، و مجتهد جاهل**».

---

١ ــ نهج البلاغة، ج ٢، ص ٩١

٢ ــ نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٦

هذا اضافة الى ماذكرناه بشأن معنى إحياء الدين حيث أوضحنا أنه إحياء لأفكار الأمة و تصحيح لمواقفها تجاه الدين. فحياة الدين لاتنفك عن حياة الامة، تماماً مثل العلم الذي يموت بموت حامليه.

واجب الإنسان المسلم في إطار إحياء الدين إذن يتلخص في إحياء السنة وإماتة البدعة أي تولّى مسؤولية خلافة «المحيي والمميت» على ظهر الأرض.

اقبال و فكرة الاحياء

إقبال من الشخصيات المعاصرة التي انبرت الى مسألة الإصلاح الديني. وأخيراً تُرجم له كتاب بالفارسية يحمل اسم «إحياء الفكر الديني في الإسلام» ويضم سبع محاضرات أكاديمية القاها العلامة في پاكستان تحت العناوين التالية:

- المعرفة والتجربة الدينية.
- المحك الفلسفي وتجلّيات التجربة الدينية.
- الحرية وخلود الذات البشرية.
- روح الثقافة والحضارة الإسلامية.
- مبدأ الحركة في الاسلام.
- تصور الله ومعنى الدعاء.
- هل الدين ممكن؟. ويبدو أن هذا العنوان الأخير مستلّ من تساؤل طرحه «كانت».

ولابد أن نؤكد في البداية أن معالجة إقبال للموضوعات التي طرحها ليست كاملة، وغير خالية من النقص، لكنها تستحقّ كل التقدير والتثمين لصدورها من مفكر سبر أغوار الفكر الأوربي واطلع بدقة على الحضارة الأوربية.

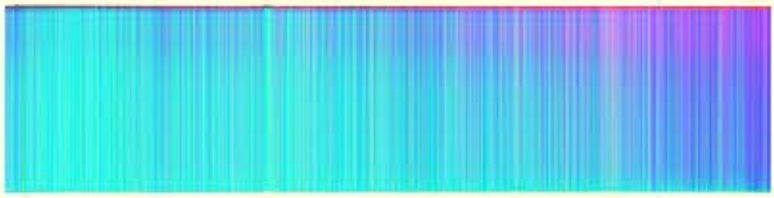

إقبال شاهد الحضارة الغربية عن كثب، وجهد في فهمها وتحليلها وكتب بلغتها حتى عرفه الغربيون كعالم مفكر، لكنه لم ينبهر بمظاهر هذه الحضارة، بل حمل عليها وأكد على ما تنطوي عليه من أخطار، وعلى المستقبل الأسود الذي ينتظرها، وحذّر شعوب الشرق من الإنجرار وراءها.

يقول في ديوانه «ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق»:[١]

«ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللاّت والعزى الى الحرم، إن القلب يعمىٰ بتأثير سحرها، و إن الروح تموت عطشاً في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب، بل تنزع القلب من القالب، إنها لصّ قد تمرن على اللصوصية فَيغيرنهاراً وجهاراً، وإنها تدع الإنسان لاروح فيه ولاقيمة له»

ويقول في الديوان المذكور:

«إنّ شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة الا وليدة دهاء اليهود الأذكياء الذي انتزع نور الحق من صدور بنيآدم. إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام مالم يعد هذا النظام رأساً على عقب».

«إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار، وجدرانها من زجاج لاتحتمل صدمة».

«إن الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدّد وكر الغربيين ومهدهم».

«إن العصر يتمخض عن عالم جديد، و إن العالم القديم الذي حوّله الغربيون مكاناً للقمار، يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الامم بلفظ أنفاسه».

«إن نور الحضارة باهر، وشعلة حياتها ملتهبة وهّاجة، ولكن لم يكن في

---

١ ــ إعتمدنا في ترجمة مقتطفات هذا الديوان على كتاب «روائع إقبال»، السيد أبوالحسن الندوي ص ٦٩ ــ ٧١

ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الإلهام، ويتشرف بالكلام، ولا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام، ويحوّل النار الى برد وسلام».

«إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون ــ حتى في ابتكارهم وثورتهم ــ عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة».

«لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوربا، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء، وحسن المظهر والنظافة، إن تجارتها قماريربح فيه واحد ويخسر ملايين، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوربا إلاّ مظاهر جوفاء، ليست وراءها حقيقة، إنّ قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الإجتماعية، إن البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدنية الإفرنجية، إن الأمة التي لانصيب لهاً في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان والوفاء، والمعاني الإنسانية الكريمة».

ويقول في كتاب «إحياء الفكر الديني في الإسلام»:

«أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث السرعة العظيمة التي يتحرك فيها العالم الإسلامي روحياً صوب الغرب»[١]

ويستدرك إقبال على عبارته السابقة موضحاً أن الحركة تجاه الجانب العلمي (العقلي) من الحضارة الغربية لاضرر فيه:

«هذه الحركة ليست باطلة أو خاطئة، لان الحضارة الاوربية، في جانبها العقلي، تعتبر مرحلة متطورة لاهمّ مراحل الثقافة الاسلامية»[٢].

غير أن إقبال يعرب عن خشيته من الإنبهار والإنجرار الأعمىٰ وراء المظاهر:

←

«خوفنا من أن الظاهر الباهر للحضارة الغربية يصدنا عن الحركة، ويشلنا عن الوصول الى الماهية الواقعية لهذه الحضارة»[٣].

ويسخر إقبال من مثالية أوربا مؤكداً أنها لم تدخل واقع الحياة الأوربية ولم تتعدّ الخطابات والتصريحات والعناوين. فليس في ضمير الإنسان الأوربي حبّ للإنسان، وإن ابتدع المذهب الانساني Humanisme، ولات احترام لحقوق الإنسان على الصعيد العملي، وان تبجّح بلائحة حقوق الانسان على الصعيد النظري، وليس فى ضميره أيضا إيمانٌ بالحرية والعدالة والمساواة و إن رفع عقيرته منادياً بها:

«مثالية أوربا لم تدخل الحياة الإجتماعية بشكل عامل حيوي، ونتج عن ذلك الإنسان الحائر بين الديمقراطيات المتضاربة، وهو يبحث عن ذاته، حيث اتجهت تلك الديمقراطيات نحو استثمار الفقراء لصالح الاغنياء.

صدقوني أن أوربا تشكل اليوم أكبر عقبة على طريق تقدّم أخلاق البشرية»[١]

ويعتقد إقبال أن المسلمين يمتلكون بين ظهرانيهم بلسم الشفاء لما تعانيه البشرية اليوم من قلق وحيرة وضياع فيقول:

«يمتلك المسلمون أفكاراً ومعتقدات متسامية متكاملة تقوم على أساس الوحي. هذه الافكار والمعتقدات تنطلق من أعماق الحياة لتضفي على ظواهر الحياة صفة باطنية.

الإنسان المسلم يؤمن بالأساس الروحي للحياة كأمر إعتقادي، وهو على استعداد لأن يبذل روحه رخيصة في سبيل هذا الإعتقاد»[٢].

النقطة التى يركز عليها إقبال هي إن الأطروحة السماوية ــ الإسلام ــ

---

١ و ٢ و ٣ ــ ص ١٠، ١١ من الترجمة الفارسية

١ و ٢ ــ إحياء الفكر الديني في الإسلام، ص ٢٠٣، ٢٠٤ من الترجمة الفارسية.

لها ضمانات تنفيذية ولها القدرة على النفوذ الى أعماق البشر، لانها تستند الى إيمان ديني. فحين يرفع الإسلام شعار الحرية والعدالة والحبّ الإنساني في المجتمع فإنه يتجه الى النفس الإنسانية لاتخاذها ضماناً لتحقيق أهدافه. أما الأطروحات الأرضية فإنها تفتقد إلى هذا الضمان التنفيذي وتبقى على مستوى الشعارات. من هنا يعتقد إقبال أن البشرية بحاجة الى ثلاثة أمور:

أولا: **الى تفسير روحي للعالم**، فالعالم في ظل التصور المادي أعمىٰ فارغ يتحرك حركة عابثة غير ذات هدف، وكل الموجودات في الكون بما فيها الإنسان ــ في إطار هذه التصور ــ مخلوقة عبثاً دونما غاية و هدف. بينما التصور القرآني يرفض هذه النظرة العبثية للعالم بصراحة: «**أفحسبتُم أنّما خَلَقناكُم عَبَثاً**؟»[١]. فالعالم في التصوّر الإسلامي يقوم على أساس موازين الحق والعدالة ولايضيع فيه مثقال ذرة من العمل الصالح أو الطالح. ولا يبتعد لحظة عن مدبّرة الحكيم الذى «**لاتأخذُهُ سِنَة ولانَوم**»[٢]

ثانياً: **الى حرية روحية للفرد**. وهذه الحرية قادرة على أن تطلق الطاقات الإنسانية الكامنة من عقالها. وتخلق للكائن البشري شخصية متميزة وتنقذه من الطروحات التى تسحق شخصيته وتكبل طاقاته.

ثالثاً: **إلى مباديء أساسية ذات مفعول عالمي، تدفع المسيرة البشرية نحو التكامل على أساس روحي**[٣]، ويقصد بذلك المباديء الإسلامية.

لم يتوقف إقبال طبعاً عند حدّ الهجوم على الحضارة الغربية، ولم يكتف أيضاً باقتراح البديل (الإسلام) في إطاره الكلي العام، بل اتجه الى قضية أساسية للغاية حين طرح هذا السؤال: هل الإسلام الحقيقي موجود اليوم

---

١ ــ المؤمنون، ١١٥

٢ ــ البقرة، ٢٥٥

٣ ــ احياء الفكر الدينى، ص ٢٠٣، ٢٠٤

بين المسلمين؟ يجيب هو على هذا السؤال بالقول: إنّ الإسلام موجود بين المسلمين وغير موجود. موجود في المظاهر التي تسود حياة المسلمين، أو بعبارة أخرى موجود على مستوى الشعائر الإسلامية. فالمسلمون يرفعون الأذان بينهم يومياً، ويتجهون نحو الصلاة زرافات و وحداناً، ويدفنون موتاهم حسب الأحكام الإسلامية، ويتسمّون غالباً بأسماء إسلامية لكن هؤلاء المسلمين يفتقدون مايخلق فيهم روحاً إسلامية، فالروح الإسلامية ميتة في المجتمع الإسلامي.

انطلاقا من هذه المقدمة آمن إقبال بضرورة تجديد الحياة الإسلامية، وسعىٰ على طريق هذا الهدف.

الإسلام لم يمتْ في رأي إقبال بل المسلمون هم الذين ماتوا، وهم بحاجة الى نفحة قدسية تحييهم وتعيد لهم دورهم الرسالي على الساحة التاريخية.

الإسلام لم يمت لأن كتابه بين ظهراني المسلمين، وسنة نبيه موجودة، وكلاهما (الكتاب والسنة) يطفحان بالحيوية ويتحديان كل عوامل تقادم الزمن واختلاف البيئات. فهما لاينطويان على شيء مثل الهيئة البطليموسية أو نظرية العناصر الأربعة أو سائر النظريات التى تنسخ وتتعرض للتغير والتبديل. الإسلام حيٌّ بل هو مبعث حياة. والعيب في فكر المسلمين وفى فهمهم الجامد الميت للاسلام.

مثل المسلمين في تعاملهم مع الإسلام كمثل مزارع وضع بذرة حيّة في تربة لا تصلح للإنبات فبقيت البذرة الحية داخل التربة دون أن تنمو وتؤتي أكلها. أو كمثل بستاني وضع في الأرض غرساً بشكل مقلوب بحيث ترتفع جذوره في الهواء وتغوص أغصانه في التربة. هذا الغرس موجود وغيرّ موجود.

وهنا تجدر الإشارة الى تشبيه رائع استعمله الإمام أمير المؤمنين على ابن أبي طالب ــ عليه السلام ــ يصوّر واقع المسلمين اليوم أحسن تصوير

إذقال: «ولُبِسَ الإسلام لبسَ الفَروِ مقلُوبا»[١] هذا التشبيه يبرز الصورة المشوهة المضحكة للإسلام الممسوخ، ويبيّن انقلاب الموازين والمظاهر والضمائر في المجتمع الذي يعيش هذا الإسلام الممسوخ. هذا الاسلام موجود في المجتمع لكنه يفتقد التأثير و العطاء ويفتقد قدرة الدفع والتحريک والتوعية.

تعامل المسلمين مع الإسلام عامل مهم في حيوية الإسلام، فقد يكون هذا التعامل عميقاً شاملاً، وقد يكون سطحياً ناقصاً، وقد يكون تعاملاً قشرياً لايتعدّىٰ المظاهر ولا ينفذ الى اللب.

السؤال الذي طرحه إقبال إذن أساسي للغاية، لانه يتجه بدقة الى موضع الداء، ويبعد البحث عن الطريقة التي اعتادها كتّابنا في الإكتفاء بذم الحضارة الغربية والثناء على الحضارة الإسلامية ظناً منهم أنهم قادرون بذلک استمالة العالم نحو المسلمين. كيف يمكن أن نستميل العالم للاقتداء بجسم نصف مشلول؟!

المفهوم القرآني للإحياء

القرآن يتحدث في كثير من آياته عن الحياة ومراتبها النباتية والحيوانية والإنسانية، وسنقتصر في حديثنا على وجهة النظر القرآنية حول الحياة الإنسانية.

القرآن في حديثه عن الحياة الإنسانية يتجاوز المظاهر البيولوجية للحياة كحركة القلب و دوران الدم ونظائرها. فهذه الحياة حيوانية لا تستطيع وحدها أن توضح الإطار الإنساني للحياة، وثمة نوع آخر من الحياة ينبغي أن

١ ــ نهج‌البلاغة، الخطبة رقم ١٠٧

يتزوّد به الإنسان كي يتمتع بالحياة الإنسانية، وقد يفتقد شخص هذه الحياة وهو يتمتع بكامل مظاهر الحياة البيولوجية. من هنا قال القرآن «لِيُنذِرَ مَنْ كان حيّاً»[1]. وهذا التعبير القرآني يوحي بتقسيم الناس الى فئتين: حية وميتة. ويقول أن النداء الإلهي يجد طريقه الى قلوب الذين لازالت فيهم بقايا حياة. أما الذين افتقدوا الحياة فلا أثر للإنذار الإلهي عليهم.

القرآن يمثل للحركة على طريق الله وللحركة على غير طريق الله، فيركز على خصائص الحياة والنماء في الحركة الاولى، والجدب والموات والضلال في الحركة الثانية فيقول:

«يا أيها الذينَ آمنوا لاتُبطِلُوا صَدَقاتِكُم بالمَنّ والأذىٰ كالّذي يُنفقُ مالَهُ رِئاءَ النّاسِ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، مَثَلُهُ كمثَلِ صَفْوانٍ عَلَيهِ تُرابٌ فأصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لايَقْدِرُون علىٰ شيءٍ ممّا كَسَبُوا والله لايَهدي القَوم الظالِمين.

وَمَثل الذينَ يُنفقون أموالَهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ وتثبيتاً مِنْ أنفُسِهِم كمثَلِ جنّةٍ بربْوةٍ أصابَها وابِل فآتَتْ أُكُلَها ضِعفين، فإنْ لَمْ يُصِبْها وابلٌ فَطَلٌّ والله بِما تَعْمَلون بَصير»

ويقول في موضع آخر:

«أوَمَنْ كان مَيتاً فأحييناهُ وَجَعَلنا لَهُ نُوراً يَمشي في الأرضِ كمَنْ مِثلُه في الظلمات»؟!

الحياة التي يتحدث عنها القرآن هنا ليست بالحياة البيولوجية، بل حياة إنسانية، يخرج الإنسان بها من الظلمات البهيمية الى نور الهداية الإلٰهية، و من ظاهرة الموت التي تجعل الإنسان أرضاً صلدة غير قابلة لتقبل

---

١ ــ البقرة، ٢٦٥ ــ ٢٦٦

٢ ــ الانعام، ١٢٣

كلمة الحق، الى ظاهرة الحياة التي تحوّل الإنسان الى تربة صالحة لحمل الرسالة الإلٰهية: «يا أيّها الذينَ استَجِيبُوا للهِ وللرسول إذا دَعاكُم لِمَا يُحييكُم»[١]

لكن هذه الإستجابة لاتتحقق فيمن انعدمت فيه كل مظاهر الحياة الإنسانية: «إنّكَ لاتُسمع المَوتىٰ ولاتُسمِعُ الصُمّ الدعاء إذا ولّوا مُدبرين»[٢]

مظاهر المجتمع الحي

نحن لانستطيع أن نفهم طبعاً كنه الحياة الانسانية الحياة، لان الحياة الحيوانية لازالت عصيّة الفهم فما بالك بهذه الحياة الأكثر تطوراً وتعقيداً. غير أننا نستطيع أن نفهمها من خلال تلمّس آثارها.

من هذه الآثار: **الوعي والتحرك.**

كلما ازداد وعي المجتمع و روح الحركة والاندفاع فيه كان أقرب الى الحياة، وكلّما هبط عنده الوعي وخمدت فيه روح التحرك كان أقرب الى الموت.[٣]

والآن لنلق نظرة على أوضاعنا الراهنة انطلاقا من المفهوم السابق لنرى مقدار ما فينا من حياة. هل نحن ننظر بعين الاحترام الى السكون أم الى

---

١ ــ الانفال، ٢٤

٢ ــ النمل، ٨٠

٣ ــ كلمة «الحي» ترد في القرآن لتفصح غالبا عن معنى العلم والقوّة. فالقرآن يصف الله بالحي: «الله لا إله الاّ هو الحيّ القيوم».. و«الحي الذي لايموت». والحياة هنا لاتعني طبعا الحياة البيولوجية بل تعني العلم المطلق والقوة المطلقة.

هذا المفهوم نستطيع أن نتخذه معياراً لفهم ماهو من الإسلام وما هو دخيل عليه. كلما من شأنه أن يقف بوجه تصاعد وعي المسلمين وقدرتهم وقوتهم فليس من الإسلام بشيء، لأن الإسلام دين الحياة، و دين الحياة لاينسجم مع الجهل والعجز والضعف.

الحركة؟ والجواب على هذا السؤال مهم للغاية لان المجتمع كلما مال الى السكون يزداد احترامه الى كل ماهو راكد وساكن.

لاشك أن المنطق السائد بيننا هو منطق احترام الساكن الجامد، وهو مظهر انحطاط المجتمع وموته[١]. أحد الاخوة الظرفاء أطلق على هذا المنطق اسم «منطق الماكنة البخارية».

سبب هذه التسمية يشرحها هو إذْ يقول:

في أيام الصباكنت أذهب الى محطة القطار ــ وكانت السكك الحديدية حديثة التأسيس في إيران آنذاك ــ فأرى القطار واقفاً والاطفال مجتمعون حوله ينظرون اليه باحترام وإجلال. ويبقى المتفرجون الصغار على حالتهم هذه حتى يبدأ القطار بالحركة، وما أن يتحرك حتى يسارع الاطفال الى التقاط حجر ليرموا به القطار. وهكذا يزداد رشق القطار بالحجارة كلما ازدادت سرعته!!

لقد كنت أعجب من هذه الظاهرة وأسائل نفسي لماذا يميل هؤلاء الاطفال الى احترام القطار مادام واقفاً؟ ولماذا ينعدم هذا الاحترام عندما يشرع القطار بالتحرك؟!

عندما كبرت ودخلت المجتمع اكتشفت اللغز، ألفيت أن هذه الظاهرة قانون عام يسود كل المجتمعات التي افتقدت الحياة. كل شيء في نظر هذا المجتمع يحظى بالاحترام والتجليل مادام ساكناً، فاذا تحرك يتخلّى عنه الناس، بل أكثر من ذلك يلقمونه بحجر من كل حدب وصوب. أما المجتمع الحيّ فلا يحترم إلا الوثاب المتحرك والمتيقّظ.

---

١ ــ حينما دبّت «الحياة» الاسلامية في جسد الأمة بايران باذن الله تعالى تغيرّت نظرتها ومعاييرها فانتفضت من رقادها وهجرت الراحة والدعة والسكون، وبدأت تطلب اللذّة والسعادة في ميادين الجهاد لافي المضجع والمعلف، وبدأت تقيّم الافراد والمجموعات من خلال حركتها على طريق الاسلام. وعسى أن تسري هذه الحياة الى سائر أجزاء جسد أمتنا وماذلك على الله بعزيز. (المترجم)

الأثر الآخر من آثار الحياة في المجتمع **الترابط والتضامن** بين أفراده. هذا الترابط يزداد كلما كانت روح الحياة نابضة أكثر في المجتمع. غير أن هذا الترابط يتجه نحو الوهن والضعف باتجاه المجتمع نحو الموت.

هذا المؤشر هو الآخر يعيننا على فهم مقدار مافي المجتمع من حياة، ويمنحنا معياراً لفهم وضع عالمنا الاسلامي المعاصر المفعم بالنزاعات والحروب والاختلافات الداخلية، والمنقسم على نفسه الى أجزاء يتجاذبها أعداء الاسلام ويساومون عليها. هذا المعيار يوضّح لنا بجلاء أن المجتمع الاسلامي بشكل عام مجتمع ميّت.

دعوة الاسلام تتجه أوّل ماتتجه الى إيجاد المجتمع المترابط المتكافل المتضامن، ومن هنا فهي دعوة الى الحياة: «**يا أيّها الذينَ آمَنُوا استَجِيبُوا للهِ وللرسُولِ إذا دَعاكُم لِمَا يُحييكُم**»[1].

والمجتمع الاسلامي الواقعي مجتمع حيّ لان أفراده مرتبطون مع بعضهم ارتباطا عضويا وثيقاً:

«**مَثَل المؤمنينَ في توادّهِم وتراحُمِهم كمثلِ الجسَد إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائرُ الجَسدِ بالسهرِ والحُمى**».

هذه الحمّى التي تظهر في البدن ليست عملية مواسات فحسب بل هي عملية نفير سائر الأعضاء لمواجهة العدوّ الذي هاجم العضو المصاب ولترميم ماأصاب هذا العضو من أضرار.

أين المسلمون اليوم من هذا الترابط العضوي؟! هل العالم الاسلامي ينهض اليوم بأجمعه إذا تعرّض أحد أجزائه لعدوان؟!

هذه الظاهرة السلبية ليست بجديدة على عالمنا الاسلامي، لان الموت بدأيدبّ في جسد هذه الأمّة منذ أن استشرى فيها الانحراف، وبلغ الأمر بها أن

---

١ ــ الانفال ــ ٢٤

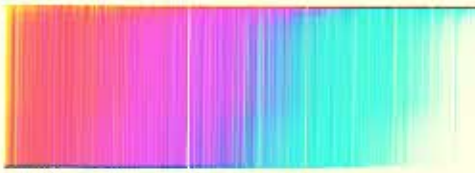

اقتطع أعداء الاسلام جزءاً عزيزاً من جسدها ومركزاً حضارياً عظيماً من مراكزها وهو ــ الاندلس ــ فلم يظهر على سائر الأجزاء ردّ فعل حياتي، لان سائر الأجزاء كانت منغمسة في صراعات داخلية بما في ذلك الصراعات الطائفية بين السنة والشيعة.

حال المسلمين اليوم من مسألة فلسطين تأكيد آخر على هذه الظاهرة. هل المسلمون المعاصرون على مستوى المسؤولية من هذه القضية؟ هل إن موقفهم من العدوان الاسرائيلي يجسّد وصف رسول الله للجماعة المؤمنة؟! الجواب واضح طبعاً.

الرسول القائد ــ صلّى اللّه عليه وآله وسلم ــ يقول في موضع آخر: «**مَنْ سَمعَ مسلماً ينادي يالَلمسلمين فلم يُجبهُ فليس بمسلم**»[1].

هذا الحديث الشريف يجري مجرى الحديث السابق في التأكيد على ظاهرة الترابط العضوي بين المجتمع المسلم الحي. إنه ينكأ جراح كل إنسان مسلم واع يرى أجزاء العالم الاسلامي تتعرض لأبشع أنواع المجازر الوحشية ولافظع انتهاكات الحرمات الانسانية، دون أن تظهر على المسلمين آثار المواسات والتجاوب العاطفي والعملي، بل الذي يزداد ظهوراً فيهم اتجاههم نحو المزيد من الشقاق والنفاق والعداء!![2].

من المظاهر الاخرى للمجتمع الحي **تكريم شخصياته الفكرية**، وأقصد الشخصيات الحية التي تعيش في المجتمع بالدرجة الاولى، لان تكريم

---

١ ــ أصول الكافي، ج ٣، ص ٢٣٩.

٢ ــ بعد أن عادت الأمة في إيران الى الاسلام عادت مظاهر الحياة طافحة في كل مظاهر المجتمع، فمظاهر التكافل والتعاون والتعاضد بين أبناء الامة في الجمهورية الاسلامية بدأت تسجل أروع ماسجله الاسلام من معاجز على صعيد خلق «الامة» «الواحدة»، ومن جانب آخر فإن الولادة الاسلامية الكريمة في إيران كشفت القناع عن مقدار مافي الأمة الاسلامية الكبرى من حياة من خلال مواقفها تجاه ماتتعرض اليه الجمهورية الاسلامية من عدوان سافر واسع شرس حشدت فيه قوى الاستكبار العالمي كل طاقاتها العسكرية والاعلامية والتجسسية. (المترجم)

الأموات قد لاينمّ عن ظاهرة حياة. أحد الأصدقاء طرح عليّ سؤالاً طريفاً قال فيه: أليس تكريم إقبال من مظاهر التقرّب من الأموات؟ هذا الصديق لايعترض طبعاً على هذا التكريم، بل يقصد أن التكريم ينبغي أن يتجه أولاً الى الشخصيات الفكرية الحيّة وكم بين ظهرانينا اليوم من هذه الشخصيات التي تستحق كل تكريم، وخير مثال على ذلك **العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي**.[1] هذا الرجل يستحق كل تكريم لجَمعهِ كل الخصال التي ينبغي أن يتصف بها إنسان مسلم مفكر ملتزم.

فهو أولاً مثال الورع والتقوى، وقضى عمره وهو يطوى مراحل تهذيب النفس والارتقاء على سلّم الكمال الانساني. لقد انتهلتُ سنوات طوال من فيض علمه وتربيته ولازلت دؤوبا على التزود منه.

وهو أيضا عالم مفكر سبر العلوم الاسلامية بفطنة وذكاء وقدّم للمسلمين عطاءاً فكريا ثرّاً على رأسه مجلدات **الميزان في تفسير القرآن** وهو أفضل تفسير معاصر للقرآن، وأستطيع أن أدّعي أنه أفضل تفسير كتب حتى الآن للقرآن منذ عصر صدر الاسلام حتى يومنا هذا، مع الاعتراف بأهمية التفاسير الأخرى ومع التأكيد على أن كلام الله لايحيطه تفسير مهما شمل واتّسع.

كما إنه الرجل الذي يعيش آلام الأمة وهمومها وقضاياها ولا أدّل على ذلك من موقفه من القضية الفلسطينية وتصدّيه لجمع تبرعات مالية للاخوة الفلسطينيين.[2]

---

١ ــ هذه المحاضرات أُلقيت يوم كان العلامة الطباطبائي حياً، وفي السبعين من عمره، لكنه رحل عنّا ــ تغمده الله برحمته ــ في الثامن عشر من شهر محرم عام ١٤٠٢، ودفن في مدينة «قم».

٢ ــ الاهتمام بالقضية الفلسطينية ظاهرة قديمة مشهودة بين أبناء الأمة الاسلامية في إيران، وخاصة على مستوى طلاّبها الاسلامية الواعية، ولم تستطع القوى الصهيونية المتحكمة في إيران الشاه أن تصدّ الأمة عن التفاعل بهذه القضية الاسلامية، بل كانت مسألة فلسطين دوماً على رأس اهتماماتها.

←

هذا الرجل تجاوزت شهرته إيران بل تجاوزت العالم الاسلامي، والعلماء المسلمون يتوافدون عليه من كل حَدَب وصوب، وأخيراً زاره الأستاذ علاّل الفاسي من المغرب وأعرب الأستاذ الفاسي عقب اللقاء عن إعجابه الكبير بهذه الشخصية الفذّة. المستشرقون الأوربيون هم أيضا على علم بمكانة هذا المفكر الاسلامي الكبير.

إنها لفريضة علينا أن نكرّم السيد الطباطبائي ونشيد بمكانته ونعطيه مايستحقه من الاهتمام والتقدير.

الصفة الأخرى للمجتمع الحي **ارتباطه بتاريخه الثوري**، فالارتباط بهذا التاريخ وبالأفراد الذين صنعوه بدمهم يؤكّد أنّ المجتمع حيّ أبي الضيم لاينثني أمام مايواجهه من تحديات وصعاب.

ولهذا علّمنا أئمة آل البيت أن نخاطب الشهداء بقولنا: «ياليتنا كنّا معكم فنفوز فوزاً عظيما» علمونا أن نحيي ذكرى الشهيد، ونبكي عليه، ونعيش أهدافه وحركته واندفاعه. علّمنا سيد الشهداء الحسين بن علي أنه: «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء».

إنَّ مفاهيم إحياء ذكرى شهداء التاريخ الاسلامي، وسيدالشهداء على الخصوص قد شوّهت الى حدّ كبير مع الأسف، ولذلك فقدت عطاءها المطلوب. ولابدّ من إعادة نظر في تاريخ شهداء الاسلام بما فيهم تاريخ سيد الشهداء، لنستلهم منه مايعيننا على مواصلة طريقهم السامي العظيم.[١]

وكان من المتوقع أن يطرأ تغيير كبير على هذه القضية لصالح الأمة الاسلامية بعد انتصار الثورة الاسلامية في إيران. لكن الصهيونية العالمية سارعت الى الانقضاض على الولادة الاسلامية المباركة، وشن أنواع الحروب المباشرة وغير المباشرة عليها.

وعند كتابة هذه السطور، الجمهورية الاسلامية تدافع عن نفسها أمام هجوم عسكري واسع شنته الصهيونية العالمية وقوىٰ الاستكبار العالمي على حدودها الغربية والجنوبية بقيادة عميلها صدام. (المترجم)

١ ــ الاستاذ الشهيد يذكرهنا نماذج من حادثة كربلاء تجسيداً لما فيها من مواقف عظيمة.

أسباب تخلف المسلمين

تحدثنا عن مظاهر الحياة في المجتمع، وبينا أن مجتمعنا الاسلامي يفتقد هذه المظاهر، مما يدلّ على أنه أقرب الى الموت منه الى الحياة. بقي علينا أن نبحث في أسباب هذا التخلّف في إطار المفاهيم الممسوخة المشوهة السائدة بين المسلمين. لان الانحراف عن الاسلام وبالتالي اتجاه المسلمين الى مظاهر الموت رافقه مسخ لمفاهيم الاسلام الأصيلة حتى عادت نظرة المسلمين الى الاسلام نظرة باهتة ميتة لاحراك فيها منذ خمسمائة عام، كما يقول الدكتور إقبال. من هنا كانت الخطوة الأولى على طريق الاحياء تتمثل في تصحيح المفاهيم السائدة في أذهاننا. وفيما يلي نعالج بعض هذه المفاهيم.

مفهوم العمل

الاسلام دين العمل، هذه الحقيقة تبدو واضحة من خلال نصوص القرآن وسنة المعصومين. هذه النصوص تؤكد للبشرية ارتباط مصيرها بعملها في إطار فكري واقعي منطقي منسجم مع قانون الخليفة.

القرآن يتحدث عن دور العمل فيقول: «لَيس للانسانِ إلاّ ماسَعىٰ»[١].

ويقول: «فَمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَه، ومَن يَعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يَرَه»[٢].

حذفناها لعدم ارتباطها مباشرة بالموضوع، ونحيل القارىء الى كتاب «ثورة الحسين» لفضيلة الشيخ محمد مهدي شمس الدين ففيه تسجيل رائع لكثير من تلك المواقف.

١ ــ النجم، ٣٩

٢ ــ الزلزال، ٧ ــ ٨

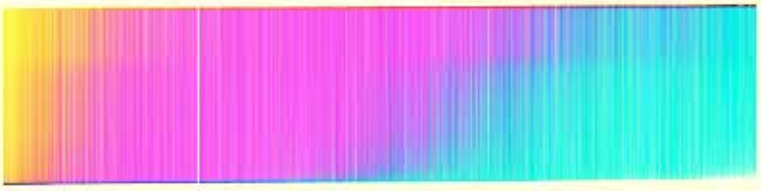

هذه التعليمات من أهم المؤثرات اللازمة لحياة الامة وحركتها. فحين تسود في الامة ذهنية ارتباط مصيرها بعملها، تسعى الى الاعتماد على نفسها وعلى طاقاتها، وهذا ما يؤدّي الى خلق الديناميكية اللازمة لحياة الأمة. هذه التعليمات تلقاها الجيل المسلم الاول من منبع الوحي فتغلغلت في أعماقه فكرة ارتباط مصيره بعمله الخالص لوجه الله، وانبثقت في وجدانه ثقة عجيبة بالنفس، واندفع الى ساحات الجهاد لايهاب هيل الاعداء وهيلمانهم ولايخشىٰ القُوى الكبرىٰ المسيطرة آنذاك على العالم.

هذه التعاليم السامية اعترتها بمرور الزمن أنواع الشوائب ومنيت بألوان الانحرافات، وتفاقم الانحراف بمرور الزمن حتى فشت بين المسلمين أفكار تستهين بالعمل، وتركت الافكار الواقعية المنطقية بشأن السعادة مكانها لافكار وهمية خيالية بعيده عن المنطق والواقع.

نماذج من انحراف مفهوم العمل

من هذه الافكار الوهمية فكرة «**الحظ**» التي ظهرت لتعبّر عن غياب جميع قوانين الكون وسننه في الذهنية السائدة. وهذه الفكرة انعكست على الأدب قديمه وحديثه.[1]

واضح أن الحظ فكرة لاتقوم على أساس أي منطق علمي أو فلسفي أو

---

١ ــ يستشهد الاستاذ الشهيد بأمثلة من الأدب الفارسي الذي يركز على فكرة الحظ ويربط مصير الانسان بهذه الفكرة. ولها في الادب العربي نظائر كثيرة منها قول الشاعر:

إنّ حظّي كدقيق بين شوك نثروه
ثم قالوا لحفاةٍ يوم ريح اجمعوه
صعب الامر عليهم قال قوم اتركوه!
إن من أشقاه ربّي كيف أنتم تسعدوه؟!

(المترجم)

قرآني. لكنها سرت في مجتمعاتنا الى كل مواقف حياتنا الصغيرة والكبيرة.

نموذج آخر من الانحرافات الفكرية في هذا المجال النظرة الممسوخة الى **نتيجة صراع الحق مع الباطل.**[1] الحديث يدور في مجتمعاتنا حول عدم إمكان انتصار الحق، وعدم إمكان انتصار الدعوة الملتزمة بقيم الصدق والعدل، وعدم إمكان الانسان الحصول على مكاسب مادّية إن كان مقيداً بموازين الصدق والانصاف. وهذا اللون من التفكير يتناقض تماماً مع المدرسة الاسلامية التي ركزت على النظرة التفاؤلية لمسيرة العالم.

القرآن يشير في مواضع عديدة الى أن نظام الكون هو النظام الأحسن، ولايمكن تصور نظام أحسن منه. يقول في آية: «**الذي أحسن كل شيء خلقه**» وفي آية أخرى يقول على لسان موسى بن عمران: «**ربّنا الذى أعطىٰ كل شيء خلقه ثُمَّ هَدَىٰ**».

والانسان في نطاق هذا النظام موجود مختار، بمقدوره أن يسير وفق نظام الخليقة الفطري، وبامكانه أيضا أن ينحرف يمنة ويسرة.

وهذا الاختيار واحد من مظاهر هذا النظام الأحسن، حيث الانسان فيه كائن مسؤول وحامل للامانة وخلاّق.

هذا الاختيار يستتبعه انحراف مجموعة من الناس عن الصراط المستقيم، لكن نظام الخليقة بمجموعه يسير وفق معايير الحقّ والعدل. وأمام هذا الانحراف تتحمل المجموعة الصالحة مسؤولية مقارعة المنحرفين. وهذه المجموعة الصالحة السائرة على طريق النظام الكوني والمكافحة من أجل الحق والعدل تحظى باسناد ربّ العالمين. فنظام الكون يسند السائرين على طريق الحقّ، وليس للباطل سوى جولة سرعان مايتراجع بعدها أمام الحق. القرآن الكريم يمثل لصراع الحق والباطل أجمل تمثيل فيقول:

---

١ ــ في بعض مجتمعاتنا العربية مثل سائد يقول: (الظالم سالم) يحكي هذه الذهنية المشككة في قدرة قِيم الحق والعدل والصدق على الانتصار في معترك الصراع. (المترجم).

«أنزلَ من السماءِ ماءً فسالتْ أوديـةٌ بـقَدَرِها فـاضحىٰ السيلُ زبـداً رابياً ومما يُوقدُونَ عليه في النارِ ابتغاءَ حليةٍ أو مـتاع زبـدٌ مثلُهُ، كـذلك يضرب اللهُ الحقَّ والباطلَ، فأما الزبدُ فـيذهبُ جفـاء وأمـا مـا ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الارضِ كذلك يضربُ اللهُ الامثالَ»[1].

فالزبد الذي يمثل الباطل يذهب جفاء أمام الحق. وهذا هو قـانون الخليقة الذي لايتخلف بينما تسري بيننا أحاديث واهية مشككة في جدوى الكفاح من أجل الحق والعدل وعلى طريق الحقيقة والاستقامة.

نحن لم نقدم مرة واحدة على الدخول في تجربة عملية كفاحية، ومع ذلك نقذف الخليقة بالعبثية والبطلان.

انتشار **فكرة المجددين** مظهر آخر من انحراف افكار المسلمين بشأن مفهوم العمل. هذه الفكرة تستمد جذورها من حديث ذي سند واه يقول: «إن الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها».

هذه الفكرة راجت في الفكرين السني والشيعي غير أنها لم تدخل الوسط الشيعي قبل القرن الحادي عشر، ففي هذا القرن كتب الشيخ البهائي رضوان الله عليه عن الكليني، ووصفه بأنه مجدد المذهب في رأس القرن الثالث، مستعيراً هذا الوصف مما أشيع في الفكر السني. بعد ذلك أطلق على المجلسي أنه مجدد المذهب في رأس القرن الثاني عشر، والوحيد البهبهاني مجدد المذهب في رأس القرن الثالث عشر، والميرزا الشيرازي مجدّد المذهب على رأس القرن الرابع عشر الهجري.

الغريب في هذه الفكرة أن النوابغ الذين ظهروا في أواسط القرون الهجرية لم يُعتبروا مجددين، كل ذنبهم أنهم لم يظهروا على رأس القرن كالشيخ الطوسي مثلا. والأغرب من ذلك أن الباحثين عن المجددين لم

---

١ ــ الرعد ــ ١٨

يستثنوا عتاة الملوك من حساباتهم فاعتبروا نادرشاه مثلاً من المجددين!!

هذه الفكرة تتعارض تعارضا تاماً مع مبدأ التغيير الذى تقره الآية الكريمة: «**إن الله لايغير ما بقوم حتى يُغيّروا مابأنفسهم**».

هذا المبدأ يربط كل تغيير في المجتمع الانساني بتغيير المحتوى الداخلي لافراد ذلك المجتمع. تجديد الحياة الاجتماعية ــ انطلاقا من مفهوم هذه الآية ــ لايتم الاّ حينما يكون أفراد الأمة مستعدين لمثل هذا التغيير. بينما فكرة المجددين تعفي الأمة من هذه المسؤولية، وتلقيها على عاتق فرد أو أفراد معينين، وبهذا الترتيب تمسخ أعظم فكرة قرانية حركية عملية.

فكرة المجددين استغلها المستثمرون المستغلون ليثيروا الفتن والمجازر، وليصرفوا الامة عن التفكير بنواقصها ومشاكلها وتخلفها وانحرافها.

جذور انحراف مفهوم العمل

يحدثنا التاريخ أنّ انحراف مفهوم العمل في الاسلام بدء منذ ظهور فكرة «**الارجاء**» على يد أناس غارقين في أوحال الرذيلة. هذه الفكرة التي تبنتها السلطة الحاكمة في العهد الاموى راحت تفرق بين «**الايمان**» و«**العمل**»، وتؤكد على أهمية مايضمره الانسان في قلبه من إيمان، وتستهين بالعمل.[١]

١ ــ قالت المرجئة «لاتضرّ مع الايمان معصية، كما لاتنفع مع الكفر طاعة» وقالوا: «إن الايمان الاعتقاد بالقلب وإنْ أعلن الكفر بلسانه، وعبدالاوثان، ولزم اليهودية والنصرانية في دارالاسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان عندالله عزوجل، وليّ لله عزوجل، من أهل الجنة».

(ابن حزم الفصل في الملل والنحل ٤/ ٢٠٤). ولاحظ في هذا الموضوع: أحمد أمين: فجر الاسلام: ٢٧٩ و ٢٩١ ــ ٢٩٤، وضحىٰ الاسلام ٣: ٣١٦ ــ ٣٢٩، وأجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام: ٧٥ ــ ٧٧ و ٢٩٥ هامش رقم ٢٠، (أنظر: ثورة الحسين، محمّد مهدى شمس الدين، ط ٤، ص/ ١١٥ ــ ١١٧) (المترجم)

مدرسة أهل البيت تقف بوجه التحريف

وقف أئمة آل البيت ــ عليهم السلام ــ بوجه كل انحراف ظهر بعد وفاة القائد الاول ــ صلى الله عليه و آله وسلم ــ، بما في ذلك انحرافات المرجئة، ومفاهيم انفصال الايمان عن العمل والاستهانة بالعمل.

الاحاديث الكثيرة التي وصلتنا عن هؤلاء الأئمة في هذا المجال تؤكد أنهم خاضوا خلال قرون متوالية حرباً فكرية هدفها إحباط محاولات المسخ والتشويه، والتأكيد على أهمية العمل، ودفع المسلمين نحو الالتزام العملي بالخط الاسلامي.

وهذه طائفة من تلك الأحاديث:[١]

عن الامام علي بن ابي طالب ــ عليه السلام ــ:.. و إني لمن قوم لا تأخُذُهم في الله لومة لائم، سيماهم سيماء الصديقين، و كلامهم كلام الابرار، عُمّار الليل، و منار النهار.. لا يستكبرون، ولا يعلون، ولا يغلّون، ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل.[٢]

وعنه: ألا و إنّ اليوم المضمار، و غداً السباق.. ألا و إنكم في أيام أمل، من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله، قبل حضور أجله، فقد نفعه عمله، ولم يضرره أجله.[٣]

و عنه: المؤمن بعمله.[٤]

---

١ ــ في هذه الفقرة من محاضرة الاستاذ الشهيد شروح بالفارسية للاحاديث تتخللها استطرادات كثيرة لاتخلو منها عادة كل محاضرة ارتجالية. كما إن الاحاديث التي يرويها المحاضر في هذا المجال خالية من ذكر المصادر وهذا مادفعني الى إجراء مزيد من التهذيب على هذا الموضوع، والرجوع الى أحاديث أئمة آل البيت في هذا المجال لاستخراجها من مصادرها، مستفيداً من الكتاب القيّم «الحياة» للحكيميين. (المترجم).

٢ ــ نهج البلاغة/ ٧١٨

٣ ــ نهج البلاغة/٩٨

٤ ــ غرر الحكم/ ١٤

وعنه: المرء لايصحبه إلاّ العمل.[١]

وعنه: العلم يرشدك. والعمل يبلغ بك الغاية.[٢]

وسئل علي ــ عليه السلام: الايمان قول و عمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الايمان تصديق بالجنان، و إقرار باللسان، و عمل بالاركان. و هو عمل كله.[٣]

وعنه أيضا: لاتكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل، و يرجو التوبة بطول الامل، يقول في الدنيا قول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين.. ثم يبالغ في المسألة حين يَسأل، ويقصر في العمل، فهو بالقول مدلّ، و من العمل مُقلّ، يرجو نفع عمل مالم يعمله..[٤]

وعن الامام محمّد بن علي الباقر ــ عليه السلام ــ: إنّ ولايتنا لاتدرک إلا بالعمل.[٥]

وعنه: لايقبل عمل إلا بمعرفة. ولا معرفة إلاّ بعمل.[٦]

سئل أبوجعفر (الباقر) عن اللعب بالشطرنج فقال: إنّ المؤمن لفي شغل عن اللعب.[٧]

وعن الباقر أيضا: إياک والتسويف، فإنه بحر يغرق فيه الهلكى.[٨]

وعن الامام جعفر بن محمّد الصادق ــ عليه السلام ــ: الإيمان عمل كلّه.[٩]

---

١ ــ غرر الحكم/ ٢٣

٢ ــ غرر الحكم/ ٥٣

٣ ــ البحار ٦٩/ ٧٤

٤ ــ تحف العقول/ ١١٠

٥ ــ الكافي ٧٥/٢

٦ ــ تحف العقول/ ٢١٥

٧ ــ الخصال ٢٦/٢

٨ ــ البحار ١٦٤/٧٨

٩ ــ الكافي ٣٤/٢

وعنه: الايـمان لايكون إلا بـعمل، والعمل مـنه، ولا يثبت الإيـمان إلا بعمل.[١]

وعنه أيضا: ملعون، ملعون من قال: الإيمان قول بلا عمل.[٢]

وعنه: يا ابن جندب... رحم الله قوماً كانوا سراجاً ومـنارا، كـانوا دعاة إلينا بأعمالهم ومجهود طاقتهم.[٣]

وعنه: كونوا دعاة الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاة بألسنتكم.[٤]

وعن الصادق أيضا: من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يـوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شرّهما فـهو مـلعون، و مـن لم يـر الزيادة في نفسه فهو الى النقصان، و من كانَ الى النقصان، فالموت خير له من الحياة.[٥]

كل هذا التأكيد على مفهوم العمل يوضّح مَعلَما هاماً من مـعالم مـدرسة آل البيت هو الحركة الدائبة على خطّ الاسلام التكاملي، و نبذ كل انفصال بين الإيمان والعمل، و جعل العمل معياراً لتقييم خلوص الانسان وقربه من الله.

نحن اليوم اكتفينامع الاسف بالانتساب الى مدرسة آل بـيت رسول الله ــ صلى الله عليه و آله وسلم ــ على مستوى القول لا العمل.[٦]

الاسلام أكد أن الانتساب وحده، أيـاً كـان شكله، لايـغني الانسان عن

---

١ ــ الوسائل ١٢٧/٦

٢ ــ البحار ١٩/٦٩

٣ ــ تحف العقول/ ٢٢١

٤ ــ الكافي ٧٨/٢

٥ ــ الوسائل ٣٧٦/١١

٦ ــ لايخفى أن هذا الانتساب تحوّل منذا اندلاع الثورة الاسلامية في إيران الى ارتباط عملي وثيق نجد مصاديقه في ظاهرة الاندفاع نحو ساحات الجهاد والشهادة لاقرار حاكمية الله على الارض، و تحطيم الطاغوت، وتـطبيق الاسـلام الصحيح البعيد عن الانـحرافات. و هذه الظاهرة تشكل أهم معالم مدرسة آل بيت رسول الله (ص).

العمل، ولا يمكن أن يشكل نقطه إيجابية في صفحة أعمال الانسان إنْ لم يرافقه التزام عملي.

القرآن يدين أولئک الذين زعموا أن لهم عند الله قرابة و زُلفىٰ، وأنهم مستثنون من العذاب الإلهي:

«وَ قالوا لن تمسنا النارُ الاّ أياماً معدودةً. قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهدَه، أم تقولون عند الله مالا تعلمون؟!

بلى من كسب سيئة و أحاطت به خطيئته فأولئک أصحاب النار هم فيها خالدون.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئک أصحاب الجنة هم فيها خالدون».[1]

الاسلام يرفض أن تكون وشيجة القرابة شفيعاً للانسان. يتحدث القرآن عن نوح ــ عليه السلام ــ أنه قال لرب العالمين حين رأى قرب هلاک ابنه «ربّ انّ ابنى من أهلي»[2]

فيجيبه الله تعالى: «إنه ليس من أهلک، إنه عمل غير صالح».[3]

وعن الامام الصادق ــ عليه السلام ــ: لما فتح رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ مكة، قام على الصفا فقال: يا بني هاشم! يا بني عبدالمطلب إني رسول الله اليكم، وإني شفيق عليكم. لا تقولوا: إنّ محمداً منا. فو الله ما أوليائي منكم ولا من غير كم إلاّ المتقون.. ألاّ و إني قد أعذرت فيما بيني وبينكم، وفيما بين الله عزوجل وبينكم، و إنّ لي عملى ولكم عملكم.[4]

و روي أن رسول الله (ص) قال لبضعته فاطمة الزهراء (عليها السلام):

---

١ ــ البقرة، ٨١ ــ ٨٣

٢ ــ هود، ٤٦

٣ ــ هود، ٤٧

٤ ــ البحار، ٢٣٣/٩٦

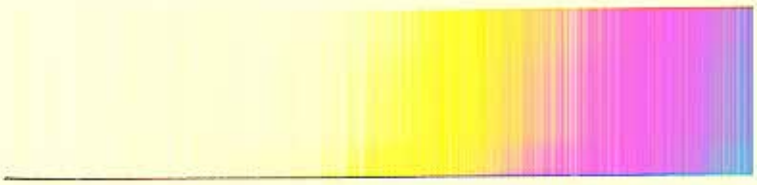

يا فاطمة اعملي بنفسك إني لا أغني عنك من الله شيئاً.

وعن الامام على بن موسى الرضا (عليهم السلام): أنه ليس بين الله وبين أحد قرابة. و لا تنال ولاية الله الا بالطاعة. ولقد قال رسول الله لبني عبدالمطلب: إيتوني بأعمالكم لا بأحسابكم وأنسابكم. قال الله تعالى: «فاذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساء لون. فَمَنْ ثقلت موازينُه فأولئک هم المفلحون. و مَنْ خفّت موازينه فأولئک الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون».[١]

مفهوم التوكل

التوكل من المفاهيم التربوية الاسلامية السامية. و هو مثل سائر مفاهيم الإسلام دقيق و حسّاس و ذوحدّين. يمكن أن يكون له أعظم الآثار الإيجابية على الصعيدين الفردي والاجتماعي، إنْ فُهم بالشكل الصحيح. و من الممكن أن ينقلب هذا المفهوم الى عامل مثبط للهمم و العزائم ان شُوّه مفهومه الاسلامي الصحيح.

المفهوم القرآني للتوكل ينبض بالزخم والدفع والحياة، ويزيل عوامل التردّد و التراجع والانهزام والخوف من النفس الانسانية، و متىٰ ما أراد القرآن أن يزيل عوامل الضعف من المحتوى الداخلي للفئة المسلمة ويقوّي عزيمتها وإرادتها وصمودها يطرح مفهوم التوكل:

«ولَنَصبرنّ على ما آذيتمونا و على الله فليتوكل المتوكلون»[٢]

«إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارّهم شيئا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون»[٣]

١ ــ عيون أخبار الرضا ٢٣٥/٢

٢ ــ ابراهيم/ ١٢

٣ ــ المجادلة/ ١٠

«فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا و على ربهم يتوكلون»[١]

«ولا تُطع الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم وتوكل على الله»[٢]

«فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين»[٣]

هذا المفهوم الحيوى للتوكل تبدّل مع الاسف بين المسلمين اليوم الى تواكل و تقاعس عن العمل والاندفاع.[٤]

الزهد

الزهد في اللغة ترك الشيء والرغبة عنه. وفي الإصطلاح يطلق على ترك الإنسان لشيء يرغب فيه رغبة طبيعية. أي إنّ صفة الزاهد لاتطلق على المريض الراغب عن تناول الطعام ولاعلى العنّين الراغب عن اللذة الجنسية.

الزهد من المفاهيم الإسلامية السامية البناءة التي انحرفت في أذهان المسلمين، ولعل الانحراف في مفهوم الزهد سرى الى المسلمين من المسيحية. فالمسيحية فرقت بين العمل الدنيوي والعمل الاخروي، واعتبرت

---

١ ــ النحل ٩٨/٩٩

٢ ــ الاحزاب/٤٨

٣ ــ آل‌عمران/ ١٥٩

٤ ــ عاد هذا المفهوم يسجل عطاءه العظيم في الجمهورية الاسلامية. فقد تكالبت قوى الاستكبار العالمي بأجمعها لضرب الثورة والتضييق عليها سياسيا واقتصاديا وعسكريا، لكن كل هذه الضغوط والتضييقات لم تزد أبناء الامة في إيران الا صموداً و اصراراً على مواصلة حمل مسؤولياته الرسالية، مجسدين بذلك قوله تعالى: «الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله و نعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذوفضل عظيم» (آل عمران ١٧٤ ــ ١٧٥)

كل ممارسة عملية للإنسان مع الطبيعة والحياة عملاً دنيوياً، بينما أطلقت على الطقوس المعزولة عن كل ممارسة حياتية اسم العمل الأخروي أو العبادة. وها هو «المنجد» بين أيدينا يعبّر عن هذه النظرة المسيحيّة إذ يقول: زَهَدَ في الدنيا، أي تخلّىٰ عنها للعبادة. وتزهّدَ: تَركَ الدنيا للعبادة.

هذا المفهوم المنحرف عن الزهد ليس بجديد على المدرسة المسيحية، فقد ظهر فيها يوم ظهرت فيها الرهبانية التي قال عنها القرآن الكريم: «ورهبانية ابتدعوها». والاسلام رفض هذه الرهبانية حين وصفها القرآن الكريم بأنها بدعة، وقال عنها رسول الله (ص): لارهبانية في الاسلام.

الاسلام يرفض أي انفصال بين العمل الدنيوي والأخروي، ويؤطر كل نشاطات الإنسان الحياتية بإطار ديني، ويعتبرها عبادة وعملاً أخرويا، إن كان فاعلها يبتغي منها رضا الله.

القدرة الإجتماعية والإقتصادية في يد الإنسان المسلم وسيلة لتحقيق مهمّة خلافة الله على وجه الأرض. لا وسيلة لاستثمار الآخرين واستضعافهم:

«اجعلني على خزائنِ الأرض إني حَفيظٌ عليهم»[1]

ويوسف يستهدف من هذه المسؤولية على خزائن مصر أن يؤدّي مسؤوليته الإقتصادية في الحياة، ولايريد أن يستغل هذه القدرة لمطامعه وأهوائه. وهكذا الإنسان الإلهي يسخر طاقاته في سبيل الصالح العام، ويستثمر كل قدراته على طريق أداء مسؤوليته الإلٰهية. بل عليه أن يحصل على القدرة اللازمة لاداء هذه المسؤولية.

علماء الإسلام افتوا بحرمة الخدمة في جهاز الحاكم الجائر، لكنهم أفتوا أيضا بجواز تولّي منصب في هذا الجهاز إن كان الهدف انقاذ المظلومين و خدمة الناس، بل أفتى بعضهم باستحباب ذلك وبوجوبه.

---

١ ــ يوسف، ٥٥

وعلى المستوى الإجتماعي، أوجب الاسلام ارتفاع المجتمع المسلم في قوته الى مستوى يبعث الرهبة في قلوب أعداء الكيان الإسلامي: «وأعِدّوالهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون بهعدوّ الله وعدوكم»[١]

الزهد في الاسلام لايعني على الاطلاق الانفصال عن الحياة، والابتعاد عن كسب القدرة اللازمة لاداء المسؤوليات الالهية على ظهر الارض، بل يعنى الارتفاع عن الانشداد البهيمي بالارض، والترفع عن ممارسة القدرة في سبيل الاستثمار والاستضعاف، يعني بعبارة أخرى تحوّل الممارسات الحياتية الى وسيلة للارتقاء على طريق المثل الاعلى الحقّ. ومن هنا تصبح الدنيا عند الانسان الزاهد وسيلة لاغاية. لايحس بالفشل والانكسار إن فقد متاعها، ولاينبهر بها ولايقع في أسرها إن انفتحت أمامه كنوزها.

وهذا ما أراده أمير المؤمنين على ــ عليه السلام ــ إذ قال: **الزهد بين حكمتين في القرآن: «لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتيكم»**[٢]

لذات الدنيا

تكررت في النصوص القديمة عند الحديث عن الزهد عبارة الإعراض عن لذات الدنيا والإعراض عن طيبات الدنيا.

ابن سينا يقول في النمط التاسع من الاشارات: المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يسمى باسم الزاهد.

مثل هذه العبارات تُوحي أن الاسلام يقرر نوعين من اللذات: الدنيوية والأخروية، و توحي أنّ الانسان مخيّر أمام واحد من هذين النوعين من

١ ــ الأنفال، ٦٠

٢ ــ الحديد، ٢٣

اللذات، أما الدنيوية وأمام الأخـروية. لكن هذا التصوّر عن اللذة مـرفوض في الاسلام.

الإمام علي ــ عليه السلام ــ يقول:

إنّ المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا و آجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنـيا في دنياهم و لم يشاركو أهل الدنيا في آخـرتهم، سكنوا الدنـيا بـأفضل مـاسكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت.[١]

أي إن الانسان المسلم يتمتع بلذات الدنـيا كـما يـتمتع غيره، لكن هذا التمتع مؤطّر بما فرضه الله من حدود، ومترفّع عن الانشداد البهيمي بـالأرض والمتاع. أي إنه بعبارة أخرى يبتعد عمّا حرّم الله.

وهنا تجدر الاشارة الى أن القرآن يـذهب الى أن اللذة الحقيقية تكمن فيما أحلّ الله، و ليس ثمة لذّة واقعية فيما حرّم الله وان خال الانسان أنها لذّة.

يقول تعالى: «**ويُحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث**»[٢]

فما حرّم الله ليس بلذّة بل هو الوبال والخبيث بعينه. و مـا حـرّم تـعالى على عباده شيئًا من الطيبات الحقيقية: «قُل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق».[٣] «يا أيها الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صالحا».[٤]

ليس هناك لذة دنيوية إذن تـحرم الانسان مـن لذات الآخـرة، بـل هي المحرمات التي يخال مرتكبها أنها لذة وما هي بلذّة.

وليست هناك لذّة محرّمة مـازال المتمتع بـها وقّـافاً عند حـدود الله، ومنشداً الى خط الدين التكاملي المتسامي.

---

١ ــ نهج البلاغة، باب الكتب والرسائل

٢ ــ الاعراف، ١٥٧

٣ ــ الاعراف، ٢٤

٤ ــ المؤمنون، ٥١

أهداف الزهد في الاسلام

الاسلام يحث الانسان على الزهد تحقيقاً للاهداف التالية:

١ ــ الإيثار: فمهمّة الدين تتمثل في حل المشكلة الاجتماعية الناتجة عن تعارض المصلحة الفردية مع المصلحة الاجتماعيّة. والاسلام يربّي أبناءه تربية ينحل معها هذا التعارض، بل ويصبح الفرد المسلم يجد لذته في التضحية بلذائذه من أجل مصلحة الآخرين. يحرم نفسه من الملبس و المأكل والمشرب كي يتمتع بها الآخرون، ويحرم نفسه من النوم والراحة كي يسعد الآخرون.

صور الايثار التي يذكرها لنا القرآن وكتب التاريخ عن الرعيل الاول من المسلمين تؤكد قدرة الاسلام على خلق الانسان المتفاني في سبيل الآخرين.

سورة (هل أتى) تخلّد واحدة من تلك الصور، حيث تتحدث عن إيثار أمير المؤمنين عليّ وأهل بيته الكرام. وتشير الى تقديم مايملكونه من طعام الى مسكين ليلة والى يتيم في الليلة التالية والى أسير في الليلة الثالثة: «وَيطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيرا، انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا»[١]

الاسلام حث على هذا الزهد في متاع الحياة الدنيا و رغّب فيه لانه تربية للانسان على طريق السمو والتكامل ومدح الصفوة المؤمنة من الانصار التي جسدت أروع صور الايثار في المدينة، فقال تعالى «وَيُؤْثِرون على أنفُسِهِم ولو كان بهم خصاصة»[٢]

٢ ــ المواساة: الاسلام يربّي أفراد المجتمع على الاشتراك في العواطف

١ ــ الدهر، ٧ ــ ٨

٢ ــ الحشر، ٩

والاحاسيس، ويصيّر منهم جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمّىٰ.

من هنا لايمكن أن نتصور في المجتمع الاسلامي وجود فئة معدمة وفئة مترفة. لان روح المواساة التي يخلقها الاسلام في المجتمع تأبىٰ على المتمكنين أن يتركوا المعوزين في فاقتهم وفقرهم. وهنا يأتي دور الزهد ليخلق روح التكافل الاجتماعي، وليدفع أفراد المجتمع الاسلامي الى الاخذ بيد الضعفاء وازالة ظاهرة الفقر من المجتمع أو لازالة ظاهرة التفاوت الفاحش في مستوى المعيشة.

الاسلام يعير أهمية كبرى لزهد الحاكم الاسلامي. لان هذا الحاكم بحاجة الى روح المواساة أكثر من غيره، ولان الزهد في الحاكم يخلق في المجتمع معايير لتقييم الافراد لاترتبط بالمال والمتاع.

من هنا كان لزاماً على الحاكم الاسلامي في المجتمع المسلم أن يعيش مثل أبسط الناس وأضعفهم في المعيشة.

هذا أمير المؤمنين عليّ ــ عليه السلام ــ يجسد نموذج الحاكم المسلم الزاهد إذ يقول:

«.. وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوىٰ لتأتي آمنة يوم الخوف الاكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شِئت لاهتديتُ الطريقَ الى مُصَفّىٰ هذا العَسَلِ ولُبابِ هذا القمح، ونسائج هذا القزِ ولكن هيهات أنْ يَغلبني هَواي، ويقودني جَشَعي الى تخيّر الاطعمة ــ ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لاطمع له في القرص ولاعهد له بالشبع ــ أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ وأكباد حرّىٰ، أو أكون كما قال القائل:

وَحَسبكَ داءً أن تبيتَ ببطنة

وحولُك أكبادٌ تَحِنّ الى القدّ

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره

الدهر، أو أكون لهم اسوة في جشوبة العيش؟[٢]

٣ ــ التحرر والانعتاق: الانسان مقيد بعوامل بيولوجية وطبيعية لا يستطيع أن يتخلّى عنها، فهو مضطرّ الى التنفس والى تناول الطعام والى إعداد وسائل الوقاية من البرد والحرّ ونظائرها.. غير أن هناك من القيود ما يستطيع أن يتحرّر الفرد منها إن روّض نفسه على التحرّر. مثل قيود شحّ النفس والنهم وحب الادخار والاستئثار والجاه والمقام والشهرة ونظائرها. هذه القيود تكبل الانسان إن أطلق العنان لهواه ولم يروض نفسه على الانعتاق من ربقتها.

الإنسان مكلف بالتحرر من هذه القيود المفتعلة قَدَر مايتحمله من مسؤولية على الساحة الاجتماعية. لذلك كان الانبياء مكلّفون بالتحرر من هذه القيود أكثر من غيرهم.

الزهد يؤدي في حياة الانسان دوراً هاماً في تحريره من العوامل التي تشدّه الى البطر والراحة والسكون وتكريس الذات، ويجعله قادراً على الاندفاع السريع على صعيد العمل الاجتماعي و الخدمة الاجتماعية.

من هنا كان الانبياء عليهم السلام أكثر الناس تحرراً من القيود المفتعلة، وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ «خفيف المؤونة» كما تذكر كتب السيرة.

وهذا خرّيج مدرسة رسول الله، علي بن ابي طالب، يتحدّث عن ترويضه لنفسه على الانعتاق من القيود الدنيوية المفتعلة فيقول:

«إليک عني يادنيا فحبلک على غاربک[٢]، قد انسللتُ من مَخالبک، وأفلتُّ من حبائلک، واجتنبتُ الذهابَ في مداحِضک.... أغربي عنّي[٣] فوالله لا

١ ــ من كتاب علي الى عامله على البصرة عثمان بن حنيف.

٢ ــ الجملة تمثيل لتسريح الدنيا وابعادها عن نفسه

٣ ــ أي ابتعدي عني

أذلّ لک فتستذ ليني، ولا أسلس[١] لک فتقوديني، وأيم الله ــ يميناً أستثني فيها بمشيئة الله ــ لأروضنّ نفسي رياضة تهش معها الى القرص[٢] إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما، ولادعنّ مقلتي كعين ماء، نضب معينُها،[٣] مستفرغةً دموعها. أتمتليء السائمة من رعيها فتبرک، وتشبع الربيضة[٤] من عُشبها فتربض، ويأكل عليّ من زاده فيهجع؟!! قرّت إذن عينه[٥] اذا اقتدىٰ بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة[٦] والسائمة المرعيّة!»

وهذا الانعتاق لايعني الانعزال عن الدنيا، بل يعني دخول معركة الحياة بترفّع والتخلص من كل الذاتيات، والذوبان التام في المبدأ، والتضحية المستمرة على طريق أهداف الرسالة. يعني ممارسة الحياة ممارسة القائد لها لا المنقاد، والموجّه لمسيرتها لا التابع لها اللاهث وراءها.

وهكذا كان أمير المؤمنين علي وسائر المقتدين برسول الله (ص).

٣ ــ تذوّق اللذات المعنويّة: الانغماس في تلبية حاجات الجسد الماديّة يغلّظ الحسّ ويضخّمه، ويغلق منافذ المشاعر الانسانية واللذائذ المعنوية. الفرد الذي يعيش بين معلفه ومضجعه لايمكن أن يتحسّس لذة معنوية مثل لذة الدعاء ولذه الاتصال بالله ولذّة التضحية من أجل الآخرين ولذّة طلب العلم والتفكير والعطاء.

وحين يمارس الانسان عملية الترفع عن الانغماس في اللذات المادية،

---

١ ــ أي لا أنقاد

٢ ــ أي تفرح بالرغيف

٣ ــ أي أبكي حتى لايبقى دمع

٤ ــ الربيضة: الغنم

٥ ــ دعاء على نفسه بَبرود العين ــ أي جمودها ــ وهي حالة مَنْ يفقد الحياة

٦ ــ أي المتروكة

وعملية الانسلاخ من الانشداد البهيمي بالارض والمتاع، فانه ينفتح على عالم جديد وعلى لذات جديدة لاتقل عن اللذات المادية، إن لم تكن أعمق منها. من هنا كانت لذة الصلاة قُرّة عين الرسول الاعظم، واحدى ثلاثة أشياء يتعشقها في الحياة الدنيا.

الانسان العابد الزاهد يرى حقائق الكون بمنظار يختلف عن ذلك الفرد المنغمس في حسّه المادي...

والفرق بين الاثنين لايقتصر على اطار الرؤية، بل يتّسع ليشمل التفكير والاستنتاج والتقييم والربط. يقول تعالى:

«إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض. ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك».

واحد تبلیغات خارج کشور بنیاد بعثت
خیابان سمیه بین‌مبارزان وفرصت
بنیاد بعثت تلفن ۸۲۱۱۵۹

توزیع:
مؤسسة البعثة (بنیاد بعثت):
طهران ــ شارع سُمیّة ــ تلیفون ۸۲۱۱۵۹